محمد عابد الجابري ومغامرة العقل المستنير

قبسات من ذاكرة جيل ومسيرة إبداع(•)

مصطفي محسن(••)

عالم اجتماع ومفكر عربي من المغرب

- ١ -

إلى روح المفكر الألمعي والهرم الشامخ حياً وراحلاً عنا، السلام عليك، في مثوالك الأبدي، ورحمة منه تعالي وبركات!

من رحم التعب الممض أنتزع هذه الشوارد، التي لا أدري ما إذا كانت تعزية فيك أو رثاء لك أو تكريماً أو مديحاً للشيم الحميدة لشخصك الكريم، وكل ما أحسه الآن أنها انتفاضة من القلب والفكر عفوية بلا ضوابط أو حدود، أملتها على الخاطر أهوال اللحظة وفداحة فقدانك أيها العلم الفذ العزيز، فتقبلها مني، أنت وأهلك وذووك ومحبوك، صادقة مخلصة عارية من أي تنميق أو "رتوش" أو تصنع أو نفاق..!.

في أحد الأيام، وتحديداً يوم الثالث من أيار / مايو ٢٠١٠، وبينما كنت كعادتي، في مكتبي في أوائل الصباح، أرمم بعض نتوءات نصوص آخر ما كتبت، وهي "شهادة ومداخلة فكرية" كنت قد هيأتها بمناسبة تكريم أستاذنا، عالم الاجتماع المغربي محمد جسوس، زميل الراحل الجابري ورفيق دربه في بعض محطات نضالهما السياسي المشترك، ويرن هاتف منزلي، فإذا بالباحث الاجتماعي الشاب الواعد د.عبد الرحيم العطري يحمل إلى نبأ وفاة أستاذنا الجابري، تلك المنارة المضيئة في عتمة هذا الزمن الثقافي المغربي العاثر، وفي سماء الفكر العربي والإسلامي والإنساني، الذي ليس أقل خطأ من التعثر والتيه والضلال... إلا ما نجا من تبور ذلك من نماذج واستثناءات مشرقة مائزة.

كانت المفاجأة مبرحة صادمة الوقع، إلا أني سرعان ما حاولت استيعاب رجتها العاتية حين استسلمت، بهدوء وجلد وإيمان، لمشيئة الله ولقضائه الذي لا يرد ولسنته النافذة في هذه الحياة، وحين أسعفتني البصيرة بما التمع في الذهن من حقيقة أن العظام، أمثال الجابري، لا يموتون، بل يبقون، روحاً وفكراً، أحياء متألقين في عوالم الخلود السرمدي.

ولم تمض سوي دقائق معدودة حتى رن الهاتف من جديد، إنه هذه المرة الشاب الباحث والصحافي المناضل د. أحمد ويحمان يعزيني بدوره في فقيدنا الكبير، وبدون أن يمهلني للرد أو الحديث، استطرد:" لقد اتصلت هاتفياً قبل أيام بالأستاذ الجابري، وأخبرته بأننا ننوي زيارته في بيته بالدار البيضاء في أحد أيام الجمع المقبلة بإذن الله، وذلك بعد أن

(•) كنت هذه الكملة/ الشهادة بمناسبة الذكري الأربعينية لتأبين المفكر العربي والإسلامي الكبير د. محمد عابد الجابري، بتاريخ ٨ حزيران / يونيو ٢٠١٠.

(••) البريد الإلكتروني: mostafamohsine@hotmail.fr

نكون قد تناولنا غداءنا (وجبة الكسكس المغربي) في منزل صديقه الأثير والمناضل الطيب الأخلاق أخينا الأستاذ عبد القادر الحضري، وسألته عن صحته- يضيف أحمد – فطمأنني، ولم يكن يزعجه سوي طنين في الأذن أمسي يعاوده، هذه الأيام، بين الفينة والأخرى.. هكذا يا سي مصطفي لم تكتب لنا زيادة أستاذنا الجابري..". فواصلت على الأقل لصلة الرحم وتجديد عهد اللقاء به قبل رحيله إلى دار البقاء ومغادرته لهموم وشواغل هذه الدنيا اللعوب الفانية! فليرحمه الله وليسكنه فسيح جناته، وليمطر روحه شآبيب المغفرة والرضوان...!

وتوالت المكالمات من كل مكان على هاتفي الثابت والمحمول معزية مواسية، ومن الكثير من المثقفين والطلبة والأصدقاء...، بل حتى من أولئك الذين لم يسبق لهم مقابلة الجابري أو رؤيته مباشرة أو مجالسته... اللهم إلا بواسطة علاقتهم الروحية به عبر أعماله المؤسسة الرائدة، وكانت كل مكالمة تنتهي بما يفضل المؤمن أن يختتم به كلامه في مثل هذه المناسبات الأليمة، من دعوات ترحم، والتجاء إلى الله، وترديد متواتر للآية الكريمة الحكيمة: **(إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)** (●).

وفي غمرة ذهول عارم لم تصمد أمامه كثيراً معانداتي القوية المتحدية، هرعت أضرب في شوارع المدينة، باحثاً في أحد فضاءاتها عن نخبة من جلسائي من بعض الصحافيين والكتاب والمناضلين.. إلا أنني ولسوء حظي، لم أجد منهم أحداً ممن كنت أهفو إلى أن يشاركني آلام ومشاعر هذا المصاب الجلل العظيم، لذا، فحينما عدت مغبونا إلى منزلي، لم أشعر إلا وأنا أهوي بالخبر كالصاعقة على زوجتي وهي عائدة لتوها من أداء واجبها التربوي، هدأت من روعها، وأدركت عندها أنني فقدت الكثير مما كنت أتسم به من حكمة وسلاسة في تمرير مثل هذه الأخبار غير السارة إلى من يحيط بي من الآخرين.

ومنذ حوالي شهر قبل هذا الحدث الآليم، كنت قد رتبت، مع طلبة "مركز التوجية والتخطيط التربوي"، حيث كنت أعمل، موعداً مفتوحاً معهم حول كتابي الجديد:" مدرسة المستقبل، وذلك يوم الأربعاء الموالي لهذا الحدث المذكور، وكدت أعتذر عن هذا اللقاء للظرف ذاته، إلا أنني استقويت على ضعفي ببقية من عناد وإصرار على المواصلة والاستمرار، وكان في نيتي ألا أبدأ كلمتي إلا بعد الدعوة إلى ترحم جماعي على الأستاذ الجابري، غير آني فوجئت بأن أحد الطلاب، وعلى غير المعتاد، افتتح الجلسة بتلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم، ولما انتهي من هذه التلاوة، التفت إلى جمهور الطلاب والحضور قائلاً:" بما أننا فقدنا في هذه الأيام علماً كبيراً من أعلام الفكر المغربي والعربي والإسلامي والإنساني د. محمد عابد الجابري، الذي كان أستاذاً لضيفنا مصطفي محسن، فإني أدعوكم للوقوف وقراءة الفاتحة ترحماً على روح الراحل الكبير"، وكذلك كان وقد أكبرت في هؤلاء الطلاب – وكلهم من رجال التعليم – هذه الالتفاتة الإنسانية المعبرة، بما توحي به من نضح تربوي محمود، ومن تقديرهم لهذا المربي والمفكر الفقيد.

-٢-

(●) القرآن الكريم :" سورة البقرة " الآية ١٥٦.

تعود أول علاقة لي غبر مباشرة بالمرحوم الجابري إلى أواسط ستينيات القرن الماضي، حيث كنت تلميذاً في آخر المرحلة الإعدادية في ثانوية الهداية الإسلامية في مدينة آسفي، وذلك عن طريق كتاب/ مقرر الفلسفة/ الحديث حينذاك: دروس الفلسفة، لطلاب البكالوريا، لمؤلفيه: محمد عابد الجابري، أحمد السطاتي، مصطفي العمري، ونظراً إلى الأسلوب البيداغوجي الهادف الذي وضع به هذها المصنف المدرسي، وإلى أني كنت متفوقاً على مستواي النظامي – لاعتبارات تربوية ليس هذا مجالاً مناسباً لذكرها – فقد تمكنت من إكمال استيعاب مقبول لهذا المقرر في نهاية هذه المرحلة، كما استكملت دراسة أجزائه اللاحقة في متم الموسم الدراسي (١٩٦٦- ١٩٦٧)، أي في نهاية السنة الأولي من الطور الثانوي الثاني (ما يدعي الان بالجذع المشترك)، مع العلم بأن مادة الفلسفة لم تكن تدرس آنذاك إلا في قسم البكالوريا، آخر سنة من هذا الطور، وكان الإحساس الذي يغمرنا جميعاً، تلاميذ ومدرسين، هو أن هذا المؤلف المدرسي الفريد قد فتح أمام الكثير من أجيال المرحلة، آفاقاً رحبة لدراسة الفلسفة بمفهومها الشمولي، أي بما يندرج في إطارها من ميتافيزيقا وأخلاق ومنطق وسايكولوجيا وسوسيولوجيا وفكر إسلامي.. إلخ، مما ما تزال امتداداته متواصلة الاستمرار في نظامنا التعليمي حتى الآن، على ما طاول هذا النظام من إصلاحات وتحولات...

وأتذكر كذلك أن الأستاذ الجابري، مفتش الفلسفة، أتي إلى مؤسستنا في الفترة الآنفة، متفقداً أحد المكلفين بتدريس الفلسفة فيها، وهو المرحوم محمد القيرواني (السوسي)، المدرس النابغة المتميز، الذي لم يدرس في جامعة ما، ولم يتلق أي تدريب أو تكوين تربوي نظامي، ولم يتجاوز مستواه التعليمي شهادة البكالوريا الفلسفة في وضعها القديم، ولكنه رغم ذلك أظهر من كفايات التفوق في المعرفة ومهارات التعليم ما أذهل زملاءه في المدينة، وعلى رأسهم الإخوة المشارقة، الذين كان جلهم يحمل شهادات جامعية عالية، وقد استقدموا للمساهمة فثي تطوير مسيرة النظام التربوي في المغرب المستقل.

وفي أشيع عن د. الجابري أنه أعجب أيما إعجاب بهذا المدرس الشاب، واغتاظ لوضعه، فنصح له بإتمام دراسته الجامعية، بل عرض عليه حتى مساعدته الشخصية، وذلك حتى يصبح في وضعية تربوية وإدارية أحسن من التي كان فيها في ذلك الوقت، وقد أبان الجابري بهذا الموقف النبيل أنه لم يكن مجرد مفتش صاحب سلطة ومهام إدارية، بل كان مربياً مواطناً واعياً بدوره الريادي، وقدوة تحتذي في دعم ومساندة وتشجيع مثل هذه الطاقات الشبابية الموهوبة المتفردة، إلا أن د. القيرواني، رغم محاولة يائسة منه للعمل بتوصية د. الجابري، عجز عن تحقيق أمله فيه، وذلك لاعتبارت ذاتية وموضوعية متعددة، يرتبط جلها بما عاناه بعض أبناء جيله من متاعب ومشكلات اجتماعية وإنسانية، وعلى أكثر من واجهة وصعيد، مما عشنا بعضه أيضاً كمنتمين إلى هذا الجيل ذاته، جيل المعاناة والعصامية والكفاح والتحدي...

في مستهل الموسم الجامعي (١٩٦٩ -١٩٧٠) التحقت – في إطار الوضع القديم – طالباً أستاذاً بالمدرسة العليا للأساتذة، وبكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وهكذا وجدت نفسي، مع ثلة من زملائي، على مقاعد الدراسة أمام د. الجابري، وفي قسم الفلسفة المعرب آنذاك.

رأيته أول مرة أمام باب الكلية وهو ينزل من سيارته ("رونو٤")، على ما أذكر، التي كان يتنقل بواسطتها بين الدار البيضاء والرباط، رجلاً في مقتبل العمر كان، بديناً بعض الشيء لا يخلو مظهره من مهابة ووسامة وأناقة هندام بسيط، يثيرك في هيأته هذه حذاؤه الصيفي (صندالة) الذي كان يفضل لبسه، وعلى غير المعتاد في الغالب، مع جوارب داكنة اللون، وكذلك محفظته التي لم تكن تفارقة إلا في النادر الأقل، وبينما كان يمر أمام همساتنا حوله بمشيته المتئدة الهادئة، ألقينا إليه إشارة تحية من بعيد، فرد بمثلها، ثم واصل المير إلى أحد اقسام إدارة الكلية، إنها ملامح الصورة الأولية التي ما تزال تحملها الذاكرة عن هذا الرجل العظيم.

وبالحمولة الثقافية للطالب المعرب والفقية والخطيب الفصيح، الذي كنته بحكم ظروف التنشئة والتعليم و"ثقافة الجيل" جلست في أول درس أمام د. الجابري، الذي "ملأ الدنيا وشغل الناس" بكتابه الفلسفي المدرسي المؤسس الذي سبق ذكره، أستمع إليه بلهفة كبيرة، غير أني لا أذيع سراً إذا قلت إني أصبت بخيبة أمل وإحباط انتظار؛ فقد كنت أتوقع أن يخاطبنا الجابري بقوة في اللغة وببلاغة في الأسلوب، إلا أنه كان على خلاف ذلك ينحو في خطابه نحو تبسيط المفاهيم، وسهولة التعبير، ووضوح الأفكار والمضامين والقضايا الفلسفية، بل إنه كان يمزح ذلك أحياناً ببعض النكت أو الحكم أو الأمثال الشعبية السائرة. ولا أكتم أيضاً أنني، ومع خيبة الانتظار هذه، أخذت تزايلني رهبة دارسة الفلسفة التي تملكتني منذ زمان رغم عشقي الكبير لها. ووقر في خلدي أن هذه الدراسة ممكنة بالفعل، بل وسهلة يسيرة أيضاً مع مثل هذه " البيداغوجيا الذكية" المبسطة لغة وأسلوباً ومضامين وطرائق تلقين وتفسير... ثم أدركت في ما بعد بفضل ذلك بحق، " فارس السهل الممتنع" بلا منازع، وهو ما عز على غيره من أنداده من بعض المفكرين العرب، حتى أولئك الذين تتميز أعمالهم من بين هؤلاء بعمق فكري أصيل، ثم غدا يتأكد للجميع يوماً بعد يوم أنه مؤسس رائد لـ " الدرس الفلسفي" في الجامعة المغربية الفتية آنذاك، منطلقات نظرية ومنهجية موجهة إلى أجيال الباحثين الشباب، وكذلك منظومات قيم وأسس وعدد وقواعد وأعراف وتقاليد وأخلاقيات مهنية وتربوية وعلمية في النظر والتبادل والحوار... مما ساهم في تجذيره، تفكيراً وممارسة، رعيل مكافح ومواطن من مجايليه المدرسين، وفي مجالات بحثية ومعرفية مختلفة، ومما ساهم في تبلوم المعالم الكبري لتكوين " مدرسة فكرية مغربية جديدة" متميزة المرجعية والمنهج والحضور.

كانت مؤسسات الحرم الجامعي أواخر الستينيات ومستهل السبعينيات مسرحاً لأشكال متعددة من الحراك الثقافي الطموح، والعمل السياسي النشط، والنضال الطلابي البالغ الحماسة والاحتدام.. كما كانت بؤوة لوقائع وأحداث وتوترات وصراعات..، وأيضاً فضاء جاذباً لذكريات جميلة ولحياة طلابية ممتعة على متاعبها وعنتها الشديد... وقد كان لنا من كل ذلك مع د. الجابري بعض من نصيب، مما غيبت العقود السالفة تفاصيله ودقة تتابعة في الزمان، لكنها عجزت عن إخفاء ملامحه الأساسية المعبرة، التي سأستحضر منها هنا فقط، بعضاً مما يلائم المقام إحياءً وتأسياً بذكري الوفاء والإكبار والحب الصادق لهذا الرجل الفذ المنيف، ولكن بلا ترتيب زمني ضابط، أو أي اختفاء بالدقائق والتفاصيل، التي أضاعتها الآن لدي ذاكرة مهمومة غاضبة:

* تحضرني أولاً مناسبة مناقشة أطروحة الجابري للدكتوراه (١٩٧٠) حول ابن خلدون. والواقع أن الدفاع عن أطروحة جامعية في مستهل سبعينيات القرن الفائت كان في مجتمعنا وقتئذ حدثاً أكاديمياً وفكرياً متفرداً بامتياز، فلم يكن ذلك لنيل شهادة قصد تسوية وضعية إدارية في الأساس، ولا إتماماً لتكوين جامعي نظامي مقنن، بقدر ما كان ينظر إلى الرسالة أو الأطروحة الجامعية على أنها تتويج علمي لمسار، كثيراً ما يكون شاقاً وطويلاً، من الجهد والبحث، بل ومن العطاء أيضاً. وتلك هي النظرة التي استنبطها جيلنا وسار على هديها، رغم عدم وجاهتها وصدقيتها في الكثير من النماذج والحالات، غير أن د. الجابري كان قد شد عن هذه " القاعدة" فأنجز رسالة دبلوم الدراسات العليا، وأطروحة دكتوراه الدولة في زمن قياسي وجيز، قريب من تقاليد البحث الأكاديمي في بعض المجتمعات الغربية الحديثة المتقدمة، وبدا لي، بعد ذلك، أنه لم يكن يعتبر منجزه العلمي هذا سوي خطوة أولية في مسار، ولبنة في بناء " مشروع فكري" طموح أكبر وأوسع، وقد كان في ذلك بحق صاحب رؤية استراتيجية حكيمة هادفة.

غص مدرج الشريف الإدريسي بالحاضرين، من أساتذة ومثقفين وطلاب وعموم المهتمين. وكانت المناقشة، التي شاركت فيها نخبة من كبار الباحثين المغاربة والأجانب، هادئة رصينة عميقة المداخلات، بل درساً في منهجية البحث مفيداً لا ينسي. وانتهت هذه المناقشة، وخرجت منها فرحاً معتزاً بالجابري، إلا أني في الآن عينه كنت مشفقاً على نفسي، وأنا الطالب المبتدئ في أول الخطو، من تهافت فكري وقصور نظري، ذلك أن مقدمة ابن خلدون، التي قدمت لي هدية على تفوقي في دراستي الثانوية في مدينة آسفي في أواخر حزيران / يونيو ١٩٦٨ (على ما أذكر)، موقعة من الطبيب د. عز الدين لحلو، أحد أعيان المدينة آنئذ، وكنت اعتقدت أنني قد فهمت جيداً ما قرأت منها خلال العطلة الصيفية للسنة تلك، وقد تبدي لي، بعد المناقشة، أنني لم أفهم منها سوي العموميات والقشور دون العمق.

وأدركت، بفضل البحث والمران لاحقاً ومن تجربتي الفكرية المتواضعة، أن المرء في حاجة مستديمة إلى مثل هذه الرجات المستفزة التي تخلخل سكونية بعض قناعاته ووثوقياته، وتهز إيمانه ببعض الأضاليل والأوهام والعقديات.. فيهب إلى مراجعتها ونقدها الذاتي، بل إلى تجديدها وتطويرها وتجاوزها والتخلي عنها متي كان هناك مبرر أو لزوم، وبكل أريحية وتواضع وانفتاح ورحابة أفق وفكر وتعلم مستمر.

وقد كان لهذه المناقشة ما بعدها أيضاً: إذ حركت هذه الأطروحة القيمة أفكاراً متعددة لدي الأساتذة والطلاب، وأثارت معارضات وانتقادات فكرية وسياسية وأيديولوجية في الفضاء الجامعي، كما أدت، على المستوي الثقافي العام، إلى تطارح الكثير من الإشكاليات والتساؤلات المحرجة، ولا سيما بصدد الأدوات النظرية والمنهجية الممكنة والملائمة لقراءة وتحليل وفهم وتأويل ونقد مقومات ومضامين وسياقات التراث العربي الإسلامي في علاقته بتطورات الفكر الغربي ومناهجه الحديثة..إلخ. ولكن الإجماع قد تم على كون د. الجابري قد بحث فأجاد، ونظر فأبدع وجدد، وهنا تكمن قيمته وفرادة وجودة إنجازة العلمي المؤسس، وبالذات في هذه اللحظة من خطة مشروعه الفكري الرائد.

* وثاني حدث علمي أذكره هو استضافة الكلية للمفكر العربي محمد أركون، وربما باقتراح من د. الجابري. ما زالت أتذكر ملامح هلامية من هيئة أركون: قامته، وشكل شعره الذي خطه المشيب، ولكنه صوته حين ينطق لفظ التاريخ بـ " التريخ" والإسلامي بـ " الإسلمي"... مما تعودنا على سماعه من بعض المستعربين. أما موضوع الجلسة، التي حضرناها نحن الطلاب رفقة الأستاذ الجابري وثلة من الأساتذة الباحثين والمهتمين، فقد كان محوره الأساسي هو – على ما أذكر، كإطار عام – إشكالية المنهج في قراءة وتحليل ونقد التراث العربي الإسلامي في تاريخيته، وعلاقة ذلك بتوجهات ومناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية كالسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا واللسانيات والتاريخ...إلخ. وكما كانت المناقشة مفتوحة ومتشعبة وهادئة، فقد كانت الإفادة منها كبيرة كذلك. وبالرغم من أننا افتقدنا في د. محمد أركون سلاسة أسلوب الجابري ووضوح أفكاره وطروحاته، مما فرض علينا بذل بعض الجهد من أجل الفهم والتواصل، فإننا مكنا ندرك أن وراء بعض مواطن الغموض، التي تلف طروحاته ورؤاه، فكراً عميقاً واجتهاداً جديداً ملحوظاً، الأمر الذي لم نكن حينئذاك – ربما بحكم تواضع زادنا المعرفي– مؤهلين لاستيعابه وفهمه بالقدر المطلوب: مرجعيات وأبعاداً ودلالات، غير أن أهم خلاصة خرجت بها شخصياً من هذا اللقاء الفكري المهم هي أن علينا، نحن المعربين، أن نشمر عن سواعد الجد لتنمية حصيلتنا الزهيدة المضطربة في ميدان اللغات الأجنبية، مثل الإنكليزية والفرنسية، وذلك حتى نتمكن من أن نتجاوز، ولو نسبياً، بعض الآثار والتبعات السلبية لـ" تعليم معرب معطوب" بلا تخطيط لساني معقلن ولا مشروع تربوي وثقافي واضح المعالم والأهداف، وحتى نستطيع بذلك مواكبة تطور مستجدات المعارف والعلوم الحديثة، والتواصل المفيد مع متغيرات الحضارة الكونية المعاصرة ومعطياتها وقيمها.

* وأما الواقعة الثالثة، التي تعود إلى الفترة ذاتها: بداية سبعينيات القرن المنصوم، وما تزال صورتها عالقة بذهني، فتتعلق بما حصل في إحدي الحصص المسائية لبعض دروس الجابري، فبينما كنا ذات يوم، في أحد أقسام المدرسة العليا للأساتذة في مقرها القديم بأكدال، نتدارس موضوعاً في علم النفس العام، إخاله موضوع " العواطف والأهواء" أو ما يقترب منه أو يرتبط به، إذا بزميل لنا (م.ف.) معروف بحماسته النضالية في إطار منظمة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، يلج الفصل متأخراً عن موعد المحاضرة، كان د. الجابري يعرفه جيداً كما نحن، وكنا جميعاً نكبر فيه إخلاصه للعمل الطلابي الذي وصل به – مع مجموعة غيره من الطلاب المناضلين – إلى حد التضحية بواجبات الدراسة النظامية، التفت إليه د. الجابري، وبابتسامته الهادئة المعهودة خاطبه:" أين كنت يا سي ف.؟"، ابتسم صاحبنا بدوره، وما إن جلس حتى أستل من تحت جلبابه الصوفي البدوي هراوة غليظة (زرواطة) وشهرها في أوجه الجميع: "ها فين كنت، في النضال يا

أستاذ". وفي الحال أجابه د. الجابري ممازحاً، ولكن بذكاء سياسي سلس عنت لي منه معالم رسالة توجيهية كان يريد تمريرها إلينا :" لواه عبو الريح" أقرا وناضل أسي ف.." ثم عاد، بمرونة إلى مواصلة الدرس بدون تضييع وقت، أو أنزلاق إلى حديث هامشي كما قد يفعل البعض.

كانت إشكالية طبيعة الحركة الطلابية ودورها في رفد الثورة الاجتماعية مطروحة وقتها بحدة بين مختلف الفصائل الطلابية من "أقصي اليمين" إلى " أقصي اليسار". وبما أن رياح انتفاضة أيا/ مايو ١٩٦٨ الطلابية والعمالية في فرنسا بالذات كانت تهب على مجمل الفضاءات الجامعية والثقافية في بلدان العالم الثالث بشكل عام، فإن من يعتبر مثلي أن الحركة الطلابية لا يمكن أن تنجز وحدها ثورة جذرية شاملة، بقدر ما يمكن أن تساهم، ضمن حدود، في إنضاج الوعي بها ودعمها وتحصين مكتسباتها... كان غالباً ما يتعرض للنقد الشديد، الذي قد يصل إلى حد التجريح أو الاتهام بـ" الإصلاحية، أو المهادنة أو المحافظة أو حتى الرجعية أحياناً". وكانت المفاهيم الرائجة وقتها، في النقاشات الحادة بين الطلاب، أكثر ارتباطاص بقاموس الاشتراكية الثورية، مثل: الصراع أو التناحر الطبقي، الاستغلال، العنف الثوري، القمع، الاستلاب، الأيديولوجيا التحررية، ثورة البروليتاريا، الطبقة العاملة... إلخ. أما مفاهيم الإصلاح أو التوفيق أو التوافق أو التصالح أو التغيير السلمي أو التسامح أو التدرج في البناء الديمقراطي... إلخ. فكانت، في مجملها، تنعت وتوصم في النقاشات الآنفة بما سبقت الإشارة إليه أعلاه من اتهامات أو توصيفات انتقاصية مغالية أحياناً، وهو واقع لم يكن مستغرباً معه أن يترك، بعض مناضلي الطلبة دراستهم ليلتحقوا بالطبقة العاملة، ويمتهنوا العمل اليدوي الشاق، كي يعيشوا بالمشاركة من الداخل حقيقة حياة الشغيلة ومعاناتهم للقهر والحرمان والاستغلال... ثم ليقوموا كذلك بتثقفهم وتعويتهم وتعبئتهم وتثويرهم ضد البيروقراطية المتسلطة والظلم وفساد الأوضاع القائمة.. لذا لم تكن " رسالة الجابري" الآنفة بسيطة المضمون، بل ذات عمق تربوي موجه، ومغاز ثقافية وسياسية واجتماعية دالة قوية معبرة، وعنوان عقلانية منفتحة في التفكير واستنارة في السياسة، واعتدالية حكمية في المواقف والآراء والأحكام.. ومع هذا فقد كان بعض الاتجاهات المتياسرة من الطلاب ينتقده أحياناً – وهو الاشتراكي التقدمي الأصيل – بأنه " ايديولوجي النظام التربوي"، أو " منظر البرجوازية الجديدة"، أو " مثقف الحزب أو السلطة.." إلخ. ولكن الجميع، بمن فيهم منتقدوه، كانوا يقرون كلهم باستقامته الفكرية، ونزاهته السياسية، وأخلاقياته السامية في العمل والنضال، ومكانته العلمية الرفيعة المستحقة.

-٥-

لم يكن ما قدمناه سابقاً سوي قبسات سريعة مجتزأة من ذاكرته الزمن الجابري أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات الفارطة؛ زمن مشاركة الكثير من النخب والفعاليات التربوية والاجتماعية، كما الجابري، في جهود التأسيس لبعض مقومات السياسة والثقافة وأدوار الجامعة والبحث العلمي في مغرب ما بعد الاستقلال، بل وحتى قبله أيضاً، في مسار حركة التحرر الوطني، وهكذا، ونحن طلاب جامعيون في المرحلة تلك، كتب لبعض المهتمين منا أن يستمعوا وأن يحاوروا مباشرة نخبة طليعية من هذه الرموز الفكرية والسياسية المزامنة للجابري، سواء في رحاب الجامعة ذاتها، أو في بعض

المؤسسات الحزبية والنقابية والثقافية، مثل اتحاد كتاب المغرب، أو مقار بعض الأندية أو الجمعيات، على ندرتها في الفترة نفسها، ولذا، فإني أعتقد أن الذاكرة ما تزال عندي وجيلي، رغم توالي الأحداث والسنين، مهمورة بصورة متألقة لرعيل من الرواد الأفذاذ من عيار الزعيمين : علال الفاسي، وعمر بنجلون، وعبد الله إبراهيم من عالم السياسة والنضال، ومحمد الحبابي وعزيز بلال من حقل الاقتصاد السياسي، وعبد الكبير الخطيبي ورشدي فكار ومحمد برادة ومحمد إبراهيم بوعلو من ميدان الأدب والثقافة، ثم عبد الله العروي وأحمد السطاتي والطاهر وعزيز والمفكر الرائع نجيب بلدي، وعلي أومليل... وغيرهم من مجالات الفلسفة والتاريخ والفكر العربي الإسلامي، هذا لا نذكر هنا، سوي نماذج مشعة مؤثرة من هؤلاء، ممن جايلوا الفقيد الجابري في بعض السنوات المرحلة الآنفة.

وأنا ألم تشظي هذه القبسات من ذاكرة مثقلة بالمشاهد والصور والهموم وزخم الإحساس بالتاريخ الوطني والقومي، أستحضر شعوراً عميقاً ظل يخامرني على الدوام، وهو شعور مفادة أن القارئ المتمعن في حفريات في الذاكرة الذاتية والجماعية لهذا الشباب الواقد على البيضاء من بعيد، من مدينة فجيج العريقة المهمشة المقصية في إحدي الفيافي الشرقية، مما أطلق عليه بعض دهاقنة الاستعمار توصيف " المغرب غير النافع" زوراً لا حقيقة، أقول : إن هذا القارئ سيدرك أن هذا الجابري العظيم لم يرتق أو يلفق أو يرقع عناصر " مشروعه" من شتات أفكار مبعثرة، أو على بقايا أو آثار أعمال أو جهود أو محاولات مبتورة لا يلمها ناظم أو توجه أو رؤي.. وإنما تم له خطوة واعية وئيدة بعد خطوة، ولبنة فوق أخرى، مما أعتقد أن الله لو منحه عمراً أطوال مما قدر له وأراد لظل يرعي باستمرار ما استوي له من " مشروع معرفي " شامخ، متعهداً بناءه المرصوص بالكثير من جهود واجتهادات التطوير، بالإضافة والنقد الذاتي والتجديد المتواصل، كما عودنا.

فمنذ عهود تتلمذه الأولى في البيضاء – سواء بشكل مباشر أو غير مباشر – على بعض رموز فكر حركة التحرر الوطني من قبيل: المهدي بن بركة، وعلال الفاسي، وعبد الله إبراهيم، وعبد الرحيم بوعبيد، ومحمد بن الحسن الوزاني، وعبد الخالق الطريس وغيرهم، إلى متابعته للدراسة الجامعية في دمشق الفيحاء، عاصمة الشام وأحد مواطن القومية العربية المتأصلة– وهذا ما أحسسته شخصياً وأنا أتجول في شوارعها القديمة والحديثة، وفي أزقتها ومعالمها وحاراتها العتيقة: نسغ مشاعر قوية قومية إسلامية ومسيحية متجذرة في الوجدان والسلوك... – وأخيراً، إلى عودته إلى الوطن ليشتغل في ميادين التربية والثقافية والصحافة والسياسة... مستكملاً مواصلة تكوينه العلمي والاجتماعي... لا مشاحة في أن المتتبع لمسار هذا الرجل المكافح: باحثاً؟ ومربياً وفاعلاً سياسياً... سيدرك، بلا شك، أنه أمام نموذج إنساني فريد تميز، في هذه المحطات الأولي لمسار نضاله الطويل، بكونه واعداً بالكثير من الذكاء والطموح وبعد النظر وقوة وغزارة الإبداع والعطاء، وكذلك كان.

-٦-

لا أنوي، في هذه الكلمة/ الشهادة، أن أكتب بالعمق الكافي، عن منجز الجابري المتسم بالسعة والتشعب وتعدد الاهتمام والقضايا. وأزعم أن ذلك يتجاوز – في رأيي على الأقل – حدود وإمكانات القدرة الفردية إلى مستوي

المهام الجماعية، التي أطمح، بل أدعو، إلى إناطتها بهيئة مستقلة متخصصة أقترح تسميتها" مؤسسة أو مركز الجابري لدراسات الفكر العربي"، تكون ذات أبعاد وتوجهات ووظائف وطنية وقومية متكاملة، تهتم بالبحث العلمي في تراث الجابري، كما في قضايا واقع ومستقبل العالمين العربي والإسلامي، وما يرتبط بذلك من حوار وتبادل وانفتاح بين الثقافات والحضارات المختلفة، وكل ما أسعي إلى القيام به هنا هو تسجيل مجموعة من الملاحظات الأولية، التي من الممكن أن تشكل فرضيات أو مداخل تتبعية لأهم تنطورات مسار الفكر الجابري، وأوجز ذلك في ما يلي من مراحل أو آنات أساسية في هذا المسار :

* مرحلة التخطيط والإعداد وتهيئة الأسس وأدوات البناء: لقد أشرنا سابقاً إلى ما يمكن وسمه بـ " استراتيجية البناء التدريجي المرحلي " التي انتهجها الجابري في تكوين مشروعه الفكري الكبير، وهكذا، فبعد مرحلة التكوين الذاتي الأساسي، المشار إليها أيضاً في ما سلف، حل دور المرحلة التخطيطية هذه، وقد أهتم فيها، على الخصوص، بـ" المسالة المنهجية" في أبعادها ومقوماتها المفاهيمية والنظرية وأدوات البحث والقراءة والحفر والتفكيك... ويتمثل ذلك في اهتمامه، بحثاً وتدريساً، بقضايا الإبستيمولوجيا وفلسفة وتاريخ ومناهج العلوم، الدقيقة منها والإنسانية بشكل عام. ومنذ أواخر الستينيات حتى أواسط السبعينيات على وجه التقريب. مع التذكير بأن " إشكالية المنهج" ظلت قضية محورية في مشروعه العام، وفي كل فترات تطوره وتناميه.

* مرحلة الأجرأة والتجريب: إذا كانت أطروحة الجابري حول ابن خلدون في مطلع السبعينيات تعتبر بداية فعلية أولي لاختبار " عدته النظرية والمنهجية" في قراءة ونقد التراث العربي الإسلامي، تلك النواة الصلبة في مشروعة الفكري، فإنه قد واصل هذا التجريب المنهجي إلى مستهل الثمانينيات، كما نتصور، وقد قام بذلك، وفق خطته التدريجية، على امتداد فترتين متكاملتين :

– فترة قراءة وفهم واستيعاب " نصوص المؤسسة " في تاريخ الفكر العربي الإسلامي: وهنا قدم الجابري اجتهاداته النقدية المتميزة في قراءة تراث بعض أبرز أعلام هذا الفكر مثل : ابن خلدون، وابن رشد، وابن سينا، والفارابي، والشاطبي، وابن باجة... وقد آثمرت هذه الاجتهادات كتابه المهم: نحن والتراث، الذي آثار في الساحة الجامعية والفكرية، مغربياً وعربياً، مجموعة من السجالات الحادة أحياناً حول مفاهيم: التراث، والقطعية المعرفية، وعلاقة المشرق بالمغرب/ الغرب الإسلامي، ومدي صلاحية بعض التوجهات والأدوات المنهجية في مضمار قراءة التراث..إلخ.

– فترة الانشغال بقراءة ونقد " نصوص إشكاله" للتراث: وفيها قام بمراجعات نقدية للأسس النظرية والمنهجية لأعمال كل من حسين مروة في " نزعاته المادية.." والطيب تيزيني في " مشروع رؤيته الجديدة للفكر العربي في العصر الوسيط". وقد كانت كتابات هذين المفكرين الكبيرين وأبحاثهما – وبما هي أعمال مؤسسة ورائدة بدورها – من الذيوع والانتشار بين مدرسي وطلبة الفلسفة بالذات، ما جعلها تحتل عندهم مكانة مرموقة. موجهة للكثير منهم في البحث والتساؤل والجدل الفكري والسياسي والثقافي العام. لذا كانت الأطروحات النقدية للجابري حول مشروعيهما، بل وحول أعمال غيرهما أيضا، مثاراً لنقاشات ثرة غنية، ولا سيما حول إشكالية النظرية والمنهج في قراءة وفهم وتأويل التراث في

أوضاعنا الفكرية والسياسية والسوسيو حضارية الراهنة. ولعل من أهم ما تولد عن مخاض هذا الجدل الساخن ما قدمه الجابري من أفكار ورؤى في منابر ومناسبات مختلفة، ضم بعضها كتابه حول " الخطاب العربي المعاصر.." في مستهل الثمانينيات، نقلته النوعية الجديدة حينها في مسار تهيئة التأسيس لمشروعه القابل الأساس، ثم ليحتضن " حوار المشرق والمغرب" بينه وبين الفيلسوف العربي الكبير حسن حنفي بعضاً آخر من هذه المماحكات الفكرية الرائعة المفيدة، ثم ليواصل الجابري، وبنفس أطوال وأقوي، اجتهاداته العميقة وعمله المتواتر الدؤوب.

– مرحلة الانخراط الفعلي في مسيرة تشييد مشروعه الفكري الكبير: مشروع " نقد العقل العربي" الذي يبدو أنه يشكل، منذ البدايات الأولى لاهتمام الجابري بإشكاليات التراث العربي الإسلامي،" البوصلة الموجهة" لديه لهذا الاهتمام، والمحركة لانشغالاته الفكرية ضمنا وعلناً. وهكذا، وبعد أن أدرك أنه استكمل – ولكن ضمن حدود نسبية معقولة– تعبيد أرضية الانطلاق الضرورية للتأسيس، وإلى فترة الثمانينيات، إصدار رباعية/ أجزاء مشروعه الفلسفي الطموح، وليعلن " مغامراته الفكرية" المستفزة في مفازات ومجاهل " نقد العقل العربي"، مستعملاً في ذلك " عد منهجية" من المباضع والمشارط الإبستيمولوجية والسوسيوتاريخية والفلسفية.. وكل مقاصده المعرفية والاجتماعية، الظارة منها والمضمرة، والواعية واللاواعية، كانت تصبو إلى الكشف الموضوعي الدقيق عن " بنية وتكوين" هذا العقل، والإمساك بتلابيب خصوصياته ومقوماته "البيانية والعرفانية والبرهانية"، ورصد مجالات وتمظهرات اشتغاله " السياسية والأخلاقية...".

– مرحلة التوسع والامتداد : تلك التي أحس فيها بضرورة تطوير مشروعه كي يشمل قراءة وتحليل و" فهم القرآن الحكيم"، بما هو " نص وأصل مؤسس" لكل ما سبق له أن اشتغل عليه من نصوص، هي، في الواقع، فهوم وتأويلات ومتون متولدة عن هذا النص المؤسس ذاته، مشتقة من جهود ومشاريع الانهمام به والاشتغال عليه. ولذا أعتقد أني لن أجانب الصواب إذا قلت – انطلاقاً من قراءتي المتواضعة للجابري– إن انتقاله إلى هذه " القارة الواسعة" من البحث والجهد والسؤال قد تم داخل مشروعه ذاته وليس خارجه، كما يزعم البعض. ولعل المتغير الجديد في مقاربته وتعامله مع نص القرآن الكريم يمكن على ما يبدو، في بعض التحوطات النظرية والمنهجية، وفي اعتماد أساليب وأدوات بحث وقراءة وفهم وتفسير جديدة " مطابقة" (Adequate) أرادها الجابري أن تكون، في هذا السياق، ملائمة لما يمتلكه النص المقروء من قداسة دينية، ومن مكانة اعتبار سامية في الوجدان والسلوك، وفي تمثلات الوعي ومنظومات القيم والمعارف والثقافة الإسلامية...

وعطفاً على ما سبق، فإنه يتوجب علينا التذكير هنا بمعطي معرفي ومنهجي مهم، ألا وهو أن المراحل التي أوردناها آنفاً، باعتبارها آنات في تطور وتجدد مشروع الجابري، لم تكن قط منفصلة بعضها عن بعض، وإنما ظلت دوماً متآزرة، متفاعلة اللحظات، متكاملة المضامين والمكونات... وبالتالي، ينبغي أن يتم النظر إليها ضمن وحدة موجهات وأهداف هذا المشروع، على سعته وتشعبه وامتداداته وملامساته لقضايا وإشكالات معرفية وسياسية واجتماعية مختلفة متعددة... وحدة تتمثل في محاولات الجابري نقد تراثنا العربي والإسلامي وفهمه واستيعابه وتحريره من "أوهام الذات" ومن

" سلطاتها المرجعية التقليدية"، بكل ما تقوم عليه من رؤي وآليات معرفية في البحث والفهم والتفسير... غالباً ما تقرأ هذا التراث قراءة سكونية جامدة ولا تاريخية، فتجتثه بذلك من سياقه وزمنه وخصوصيات انبنائه وتحوله، أشكالاً ومضامين ومنطلقات... والعمل أيضاً على تخليصه من منزلقات السقوط في " أوهام ومرجعيات الآخر الغربي"، وفي تبعية ساذجة أو مغرضة لنظرياته ومناهجة الحديث في البحث والتحليل، رغم قيمتها المعرفية الكبيرة.

لذا، وفي إطار الجدلي الدينامي النقدي للجابري مع هاتين المرجعيتين الذاتية والغربية، ظل يؤكد باستمرار وعي مسألة أساسية وحاسمة في أعماله، ألا وهي أن توظيفه " عدده النظرية المفاهيمية والمنهجية" في هذه الأعمال يجب ألا تفهم معه في معانيها وتعاريفها المتداولة المباشرة، بل ينبغي أنتدرك في إطار بنية النصوص، وضمن السياقات والمناخات الفكرية والسوسيوحضارية التي يوظف فيها هو نفسه هذه العدة المذكورة، سواء اقتبس عناصرها من ماركس أو فرويد أو لاكان أو باشلار أو بوبر أو ألتوسير أو غوديليي أو غرامشي، وصولاً إلى فوكو وديريدا، وغيرهم من رموز الفكر الغربي الحديث والمعاصر... وهو بذلك يؤكد، في تصورنا، أطروحة معرفية ونقدية شارطة، تتمثل في كون النظرية، في مجالات الفكر والعلوم الإنسانية والاجتماعية تحديداً، ليست سوي "دليل أو مرشد عمل" لمقاربة وفهم الواقع المبحوث والتعرف إليه، وذلك بدلاً من لي عنق هذا الواقع وإجباره على الاعتراف قسراً بمقتضيات هذه النظرية وتوجهاتها، كما يفعل ما يسمه " النظريات والمناهج المطبقة" والمرجعيات الجاهزة؛ تلك التي تقوم باسم دعوات التحديث والتجديد والإنماء... بـ" إسقاط" مفاهيمها وتصوراها النظرية والمنهجية، الغربية بالذات، على الواقع المعني، فتسقط في ما أسميه " تحديثية مستوردة مقلدة" مستغربة وغربية، في الآن ذاته، عن خصوصياتها الذاتية، وعن سياقها الكوني العام.

- ٧ -

ونحن نسير بهذه الكلمة/ الشهادة عن الفقيد الجابري نحو نهايتها المتمنعة عن فكري، العصية على وجداني في مثل هذه الظروف القاسية، يبدو أن من المفيد أن نذكر ببعض أهم ما يمكن أن يستخلص من " درس الجابري" من عبر وملاحظات، قد تصلح لأن تكون – ولو ضمن حدود هذا النص ومقصديته الفكرية والإنسانية... – مثاراً لنقاش، أو منطلقات لقراءة ومساءلة جديدة لـ" المنجز الجابري". وأجمل ما هو أساسي ودال من ذلك فقط في ما يلي من ملاحظات مركزة سريعة:

* لعل من أهم ما يحسب للجابري، في تقديرنا، أنه نجح إلى حد بعيد – بفضل سلاسة أسلوبه، وحسه البيداغوجي الناضج في الكتابة والتحليل والتفسير وعرض الأفكار، ومعالجة القضايا والإشكالات المعقدة، واستحضارة وتوقعه ردات فعل المتلقي وانتظاراته لـ " التغذية المرتجعة: الفيدباك"... – في تيسير مهمة فهم التراث العربي الإسلامي، بل وحتي بعض قضايا وإشكاليات التراث الغربي وإشكالياته، على القارئ في مجتمعات العالمين العربي والإسلامي، فامتدت أعماله وطروحاته النقدية إلى المتخصصين وغير المتخصصين في أقصي هذه المجتمعات. وقد وقفت على حقيقة ذلك بنفسي في إندونيسيا بالذات؛ فبينما كنت في صيف ٢٠٠٧ – ضمن وقد مغربي في رحلة ثقافية/ سياحية بدعوة من وزارة الشؤون الدينية – ألقيت مجموعة من المحاضرات في عدد من المعاهد والجامعات الإسلامية الحكومية والأهلية، في

جاكارتا وشيربون وصورا كارتا وجوكجا كارتا...إلخ. وأتذكر أن نخبة من الإخوة الأساتذة والطلاب هناك، ومن تخصصات وأجيال مختلفة، قد أمطروني بوابل من الأسئلة عن الجابري، ولما عرفوا أنني كنت أحد طلابه قبل أكثر من ثلاثين سنة خلت، تحول بعض محاضراتي حول " اللغة العربية، والهوية، والعولمة، والتحديات الحضارية في مجتمعات العالم الإسلامي" إلى أحاديث، مطولة أحياناً، عن أعمال الجابري ومشروعه.

وقد بدأ لي حينها أن الكثير ممن انتقدوه في هذه المسألة بالتحديد، قد جانبوا الصواب إلى حد بعيد. وذلك في اتهام بعضهم له بـ" التبسيطة والاختزال والتجميع المعلوماتي، أو بالطابع المدرسي أو التحريض أو الشعبوي أو الأيديولوجي لأفكاره..". والواقع أن ذلك، في تقديرنا وكما أسلفنا، يحسب له لا عليه، كما يعد مكسباً فكرياً كبيراً، لا للجابري كفرد، وإنما لصالح رواج وتداول التراث العربي الإسلامي بين شرائح متعددة ومتنوعة من أجيال القراء ومستوياتهم وحساسياتهم ومعتقداتهم وانتماءاتهم على هذا المستوى القومي الشامل.

* وبالرغم من أن إشكالية فهم التراث ونقده ظلت "بؤرة محورية" في مسار مشروعه الفكري المنوه به في ما سبق، فإن اهتماماته –كمناضل سياسي منخرط في مجالات العمل الوطني والقومي... –قد امتدت لتشمل قضايا تربوية وسياسية وسوسيواقتصادية وفكرية وثقافية متعددة.

وهكذا، ومنذ بداية سبعينيات القرن الفائت، وهو يلقي "أضواءه على مشكل التعليم بالمغرب العربي"، و" التعليم بالمغرب العربي"، وذلك " من أجل رؤية تقدمية" لمقاربة بعض مشكلاتنا وقضايانا التربوية والفكرية والاجتماعية، التي من بين أهم ما عالجه منها إشكاليات، الدولة الوطنية، والاشتراكية، والوحدة القومية، والكتاب التاريخية، وقضايا النهضة والحداثة والتقدم والتحرر، وإعادة كتابة التاريخ الوطني والقومي، ونقد المشروع النهضوي العربي... مروراً بتناوله أيضاً " المسألة الثقافية"، وإشكالية " الديمقراطية وحقوق الإنسان"، و" الدين والدولة وتطبيق الشريعة"..، وصولاً إلي "نقد الحاجة إلى الإصلاح"، في أبعاده ومرجعياته وشروطه وحدوده..، وتقديم أطروحاته حول " العولمة وصراع الحضارات، العودة إلى الأخلاق، التسامح، الديمقراطية ونظام القيم، والفلسفة والمدنية"... إلخ. هذا كي لا نذكر هنا سوي ببعض القضايا الأساسية البارزة التي تهم الشأن السوسيوثقافي والسياسي والفكري، وطنياً وقومياً وكونياً، والتي انشغل بها المرحوم الجابري، ثم طورها ووسع دوائرها في سلسلة "مواقف"، وفي مقالاته المنشورة في مجلة فكر ونقد، وكل هذا كان، في منظورنا الخاص، يصب في تدعيم مشروعه المركزي المعني بنقد التراث وفهمه، كما كان يجعل منه ذلك " المثقف العضوي" المنخرط في قضايا الوطن والأمة والإنسانية وهمومها، ومحاولاً دوماً أن يجمع في تطور مساره الفكري والنضالي بين الباحث الأكاديمي، الملتزم بقواعد البحث العلمي وأصوله وأعرافه وأخلاقياته، و" المثقف والمربي والمواطن والمناضل" الحامل لرسالة، وصاحب قضية ودور ومهام.. أعتقد أنه على وعي كبير بمصاعبها وتحديدتها وحدودها ورهاناتها الفكرية والإنسانية...

* ولعل من أهم الجوانب الإيجابية والمشرقة في فكر الجابري أنه كان على وعي عميق أيضاً بأن الصراع على نقد التراث وفهمه هو، في مضمونه الإبستيمولوجي والسوسيولوجي، نوع من الصراع السياسي والأيديولوجي على المستوي النظري المعرفي، ولذا فبالرغم من دفاعه عن طروحاته ووجاهة مشروعه الفكري النقدي وجدته وجديته، فإنه قد كان في

الوقت نفسه يؤمن بنسبية المعرفة، وبالتالي بضرورة تنسيب الأفكار والفهوم والمقاربات والشروح والمواقف والأحكام وأشكال التقييم المختلفة...في هذا الإطار يمكن أن يفهم معرفياً وتاريخياً ما كان يدعوه هو نفسه بـ" تملك التراث" علمياً عبر اتخاذ المسافة الموضوعية الضرورية لقراءته وفهمه في تاريخيته الخاصة، أي جعله " معاصراً لنفسه"، مزامناً لسياقه الزمني الخاص، ثم الانطلاق من ذلك في جعله " معاصراً أو مزامناً لنا"، وذلك ضمن وعي معرفي وسوسيوتاريخي يمكننا من " توظيف" هذا التراث في لحظتنا الحضارية الراهنة، واستدماجه، بشكل عقلاني مستنير مواكب، في هموم العصر ومشاريع النهوض الوطني والقومي حاضراً ومستقبلاً... وفي هذا الإطار ذاته ينبغي، في تقديرنا، فهم مقاصد وتوجهات الجابري من إشرافه على "مشروع" تحقيق "مؤلفات ابن رشد" ودراستها وتجديد نشرها، كما صدرت مؤخراً عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، وعلى اعتبار أن هذا العلم الإسلامي المؤسس يشكل نموذجاً فريداً لـ " عقلانية تراثية مستنيرة" ما تزال ، كما يعتقد، صالحة للتأسي والاستفادة والاستئناس و" استئناف البدء" في مسيرة نهضتنا في شروط ظرفيتنا الراهنة، وذلك اعتماداً على ما هو مشرق وأصيل في مقومات تراث الذات، وفي منتج الآخر وحضارته أيضاً، وفي إطار حوارية تفاعليه ديناميكية ومنتجة بين هاتين المرجعيتين: الذات والآخر.

* ضمن الشروط الإبستيمولوجية والتاريخية لإنتاج المعرفة في المجال الفكري والعلوم الإنسانية بشكل عام، نري أهمية قراءة " المتن الجابري" في زمنيته المتعينة، التي ساهمت في إنتاجية وتحديد توجهاته ومقوماته الأساسية... قراءة تستحضر بوعي نقدي تاريخي خلفية صاحبه التكوينية والتنشيئية، وهمومه التربوية، ومساهماته الأكاديمية في البحث والتأطير وتوجيه الأجيال الجديدة من الباحثين والمربين، وتحولات مساره النضالي، ودلالة استقالته من المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية سنة ١٩٨١ وتفرغه، بعد ذلك، لمشروعه الفكري المهم، بدون أن يستقبل من الحياة السياسية العامة، فكراً وانتماء وممارسة اجتماعية... وصولاً إلى محطات حاسمة في تطور وتنامي مشروعه ذلك، وأشكال قراءته وتقليه وتداوله في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة.

لذا يبدو لي أن بالرغم من الجهود المبذولة في قراءة ونقد المتن المذكور، من قبيل ردود المفكر العربي الكبير الطيب تيزيني، ومشروع " نقد العقل العربي" للمترجم والكاتب المتميز جورج طرابيشي، ومواقف وتحليلات الفيلسوف العربي المجدد حسن حنفي، فإننا ما نزال في حاجة أكيدة إلى إنضاج الوعي المعرفي والسوسيوتاريخي فقط، ولكن اعترافاً بالقيمة العلمية والحضارية الوازنة لمنتج فكري عربي إسلامي وإنساني هادف ومتميز على أكثر من صعيد.

وربما لهذا الحيثيات كلها، ولكون الجابري ذاته أيضاً قد تلقي ما كتب حول أعماله من نقد في إطار " تموقع استراتيجي مهادن"، ولم يضع نفسه دائماً في خندق الدفاع عن النفس، ولم يدخل في متاهات الردود أو المناقشات أو الصراعات الشخصية، اللهم إلا ما كان من حوارات هادئة جادة ومسؤولة، فقد كانت كل الزوابع والهجمات النقدية الشرسة التي وجهت إليه، على اختلاف أهميتها وتفاوت وزنها وصدقيتها ونجاعتها العلمية...، في صالح فكره، ولجهة تدعيم رواجه وانتشاره على أوسع نطاق.

ألا تستحق منا أعمال فكرية، كانت منطلقاً أو موضعاً لأبحاث قيمة ومشاريع فكرية مهمة، ما هو منتظر من الباحث والمهتم من جهود القراءة وعمليات التتبع والاهتمام...؟

لهذه الاعتبارات كلها، فإني لا أري، مع أستاذنا الكبير الطيب تيزيني، أن برحيل الجابري يمكن أن نقول ما مفاده" أن صفحة ما من صفحات الفكر العربي المعاصر قد طويت"، اللهم إلا بالمعني الذي يفهم منه أن هذا الرحيل يشكل إيذاناً بتجديداً استئناف البدء في جهود البحث ومشاريع التفكير والتأسيس... وبفتح صفحات وآفاق جديدة في مجال قراءة ونقد أعمال الجابري خاصة، والفكر العربي والإسلامي بشكل عام.

وهكذا، ستكتب للجابري ولادات جديدة وحيوات متجددة متعددة ومتواصلة كلما تعددت وتطورت – وربما لقرون قادمة، كما هو شأن معلمه وسلفه ابن رشد وأترابه العظام- أشكال ومستويات قراءات وفهوم وتأويل الأجيال اللاحقة لمنجزة المعرفي، واقتحامها المستحق لمحاورة عقلانية مستنيرة، كما هو فكره ومساره، لقضايا ومعضلات الماضي والحاضر والمستقبل، وطنياً وقومياً وإنسانياً...

وفي هذا السياق بالذات، أستحضر عبارات دالة من كلمة تأبينية للفقيد كتبها أحد المثقفين والساسة البارزين الإسبان، ألا وهو: ميفل أنخيل موراتينوس، يقول فيها:"... كان كل من الجابري وابن رشد يران أن علاقة الحوار بين الثقافات محكومة بثلاث قواعد؛ فهم الآخر في منظومته المرجعية، والاعتراف بحق الاختلاف، والتفهم الذي يستند إلى بعد التسامح والحلم، وهذه المبادئ، كما يلخصها الجابري، تتمتع بقيمة كونية، ويمكن تطبيقها على كافة المجموعات الثقافية التي قد تطاولها علاقة التضادية أو العدائية، مثل حال أوروبا والعالم العربي (...) وأنا كإسباني أري في سيرته الذاتية والفكرية أملاً للمستقبل" (الاتحاد الاشتراكي، ٣ حزيران / يونيو ٢٠١٠). إنها الصورة المشرقة لخلود الفكر الأصيل، مع التذكير بوعي ما أسلفناه حول نسبية المعرفة ومحدودية وحدود الفكر الإنساني، وتجنب الدعوة إلى تبني أي منظور تقديسي أو تحنيطي جامد أو متحيز لمصداقيته أو صلاحيته التاريخية، ولكن هذا لا ينفي- كلما تعلمنا دروس التاريخ – أن رموزاً ونماذج من هذا الفكر تظل، بشكل ما وبقدر معين، متحدية للفناء والاندثار، مقاومة للتلاشي، متوهجة الحضور المتألق المتواتر في الزمان وفي المكان، حتى ولو بقيت مع ذلك قابلة للنقد والتطوير والمراجعة وإعادة النظر المستديم، بل وحتى للتفنيد والتجاوز.

-٨-

هكذا يرحل الجابري عنا ولا يرحل، يغادرنا إلى مستقرة الأبدي هناك، إلا أنه، رغم قساوة اليتم وفداحة الخسران، لن يرحل، ذلك أنه غاب عنا فقط جسداً وصورة منذورين للفناء في سنن الله، بينما سيحيا بيننا روحاً زكية وفكرة مضيئة متوقدة في الذاكرة والعقل والوجدان، وسيخلد جذوة متأججة تذكي فينا حمية الوفاء والاعتراف، والانتصار للقيم الفكرية والخلقية والدينية والإنسانية النبيلة التي عاش مناضلاً من أجل تأصيلها في التفكير والممارسة: قيم ومبادئ الفضيلة والعدالة والجمال والتسامح والتواضع والتعفف والإيمان والانفتاح وتقبل التعدد والاختلاف والتنوع البشري المبدع الخلاق... ومجابهة كل أشكال الظلم والإقصاء والفساد والعنف والتطرف والانغلاق في الفكر والمعتقد والسلوك...

لن تمون أيها الجابري الكبير، أيها" الأسطورة" الخالدة التي، كما كل أساطير البشر المذهلة، تظل متحدية حدود الأزمنة والأمكنة والتواريخ... لأنك عشت، فعالاً وعقيدة، فضائل "المعلم المؤسس"، الموسوم بكونه" أمة في واحد"، وفرداً نادراً مسؤولاً يحمل هموم ومطامح وطن وأمة وإنسانية... و" سمفونية" ساحرة من الإبداع والاجتهاد...

بكل هذه المعاني الجميلة وبأروع منها، ستبقي بيننا حيا ترزق، قدوة بهية للأجيال، وقبساً متألقاً مننور يبدد تيهنا في الحلكة الداجية لهذا الزمن الضائع المختل؛ فالعظماء أندادك لا يموتون أبداً، لأنهم هم وحدهم الأقدرون على قهر هذا الموت العنيد الغاشم، وهزم الفناء، والظفر بما وعد الله به عباده من الشهداء والصالحين من فوز بحظوة معانقة المستقبل، وبنعمة ذلك الخلود المعنوي السرمدي، الذي يجب، في سموه الروحي الفريد، كل بقاء أو خلود!.